عابر على الجميع

عندما سيأتيني، لن أسارع بإغلاق النافذة أو أحكم إغلاق الباب، لأنه يتسلل عبر أي شيء، وباستطاعته اختراق جميع الحواجز، في أي وقت وأي مكان.

في وقتٍ من أوقات التظاهرات في البلاد عندما كان... يذهب إلى... ليتظاهر سلميًا؛ فكرتُ أنه من الممكن ألا يعود. تأملتُ بحزن وكتبتُ هذا المقطع:

" في كل مرة يأتي ويغيب، يتملكها رعب ألا تراه ثانية، أن تكون هذه هي المرة الأخيرة ثم يتوارى كقرص شمس عند الغروب، يسقط وحيدًا وسط غيوم السماء. الكوابيس المقلقة التي قد تمتلئ بها حياتنا، ومع ذلك نواصلها متعالين على كل قلقنا ومخاوفنا، متناسين أنها قد تتحقق يومًا، وذات قدر سيء قد تحمل لنا الحياة أخبارًا سيئة، لكننا لا نبالي ما دام أن اهتمامنا وانتباهنا لن يؤجل حدوثها في شيء إذا كان مقدرًا لها أن تقع. أيامنا بسمات نسرقها من الحياة. نجري خلف الفرح ونطارده قبل أن تلحق بنا دمعة. أنفاسنا لاهثة وأعصابنا متوترة، لكننا نكثر من الضحك لنخفي خيبتنا ونتجنب شفقة الآخرين علينا. نرتدي قناع العيش بينما نحن نموت في الداخل، وداخلنا حقائق لا يساوي عددها وحجمها إلا مرات انعكاسها على مرآة التزييف الخاصة بنا."

وشعرتُ بالقهر، لأني لا أستطيع أن أكتب اسم المكان ولا اسم الشخص، لأنّ السلطة الفاشية والمجتمع كله الذي أصبح في معظمه فاشيًا - بسبب تمجيده للفاشيين- لن يرحمنا!

عندما مات جدي لأبي كان أول خبر عن الموت تلقيته في حياتي. لسببٍ لم أفهمه حتى الآن، شرعتُ أضحك ببلاهة كرد فعل على الخبر، وكل ما كنت أخشاه هو أن ينتبه أحد أفراد الأسرة لضحكي. كان عمري وقت ذاك ثماني سنوات تقريبًا.. وبعد ذلك بسنوات طويلة، عندما عدنا لمسقط الرأس، هناك حيث كان جدي، كنت أبكي بحرقة كلما نظرت إلى صورته المعلقة على الجدار في غرفة جدتي.

وحتى الآن، ومع أن هذه الحالة قد خفت مع الزمن؛ يمكنني أن أبكي إذا وقفت قليلاً وتأملت أمام الصورة المحاطة بالبرواز. وفي لحظات كثيرة، فكرتُ أني وحيدة بلا جد، وأنّ حياتي كانت ستكون أفضل لو كان جدي على قيد الحياة.

في ذاك الزمن البعيد، عندما كنت صغيرة ومات جدي ونحن في بلادٍ أخرى، لم أكن أشعر بحاجتي إليه، بعد ذلك، وخصوصًا في مرحلة المراهقة أصبحت أشعر بفراغ كبير، وحتى بعد بلوغي سن الرشد، كانت تقفز إلى ذهني أحيانًا هذه الفكرة فجأة: ماذا لو كان جدي ما زال على قيد الحياة، أية حياة كانت ستكون أفضل لا أعرف لماذا، وأي فراغ كان سيمتلئ في حياتي؟!

بعد موت جدي بسنوات، كنت أسأل جدتي وأكرر السؤال: كيف مات ؟ بين فترةٍ وأخرى، لتعيد سرد الحكاية على مسامعي، لكني توقفت عن طرح السؤال منذ مدة طويلة. تحكي جدتي لأبي: كان زي الفل! وكان الوقت ضحى، تمدد على السرير، وتناول "قرصتين" عجنتهما له في الصباح، قال: أشعر بنغزة في قلبي، وذهبتُ لإحضار شربة ماء، لم يكن يتحرك!

لن تنسى الجدة أن تؤكد واقعة أن صديقة للعائلة لم تستطع تصديق النبأ لفترة، ظلت المرأة تقول بإصرار عجيب: "إزاي يا ناس؟ ده كان لسه مكلمني بليل في التليفون وقال لي: تعالي بكرة العصر!"

ليس ثمة شيء مثير أو غير عادي في الحكاية؛ حكاية عادية، تحدث في أحسن العائلات! تكاد تكون شائعة ومبتذلة! جد يشعر بوخزة في قلبه، وجدة تحضر شربة ماء. ما الجديد؟! شعرت بالملل عندما تذكرتها.

بعد ذلك تخللت بعض الميتات، والتي لم يكن لها تأثير كبير، لكنها كانت حزينة في وقتها حياتي. عندما كنت في المرحلة الثانوية توفيت زميلة لي في حادث سير، كان أمرًا مؤسفًا جدًا، تضايقت أكثر، لأنها كانت تحاول التقرب مني في أيامها الأخيرة، لكني أبديت بعض اللامبالاة بالأمر. لم أكن أهتم، ولم أكن أعرف أن الموت سوف يأخذها! رأيت شبح جثتها يمر عبر عربة الإسعاف التي جاءت محملة بالبقايا! لا أستطيع تذكر ميتات أخرى من هذا النوع، وأنا أكتب الآن.

بعد ذلك بعشر سنوات تقريبًا، توفي أستاذ لنا في الجامعة، شعرت بحزن كبير، وحسرة حقيقية. قلت في سري وشرعت أعدهم على أصابعي: "من آخر الدكاترة المحترمين". أزعجني أني لم أكن رأيته قبل وفاته إلا منذ سنة أو بضعة شهور طويلة، قررت أنّ حظي عاثر، لأني لم أره قرب الوفاة. جلستُ أحسب الأمراض التي يعاني منها أستاذ آخر وشعرت بالقلق حين توجست أن الدور قد يكون عليه في المرة القادمة.

فكرتُ في جدتي لأمي، المريضة هي الأخرى، وشعرتُ بالذنب. أنبتُ نفسي، لأني أتكاسل حتى الآن عن تسجيل حكايات الماضي المثيرة التي ترويها عن أجدادها. اعتقدت دائمًا أن هذه الحكايات مهمة، وكنت أشعر أن واجب حفظها للأجيال القادمة يقع على عاتقي وحدي. لقد حكت جدتي حكاياتها أكثر من مرة، لكني لم أكن أهتم بتسجيلها وقتها. وفيما بعد، عندما راودتني الفكرة؛ تقاعست مرارًا عن التنفيذ، وضيعت فرصًا كثيرة.

بخجل ضعيف، وتافه، وغير مبرر! كنت أخجل أن أقول لها: هيا يا جدة.. أعيدي سرد حكاياتكِ القديمة التي سردتِها قبل ذلك؛ لأني لم أعد أتذكرها، ولأني أرغب في تسجيلها، هه، ماذا أيضًا؟ أأقول: ولأني أخشى أن تموتي قبل أن أفعل ذلك؟!

تقول الأسطورة الشعبية: أنّ الطيبين هم من يذهبون "الطيبين هما اللي بيروحوا"، لكنّ الحقيقة أن الأشرار أيضًا يذهبون.

أيها السَّام: من ستترك لنا؟!